# استفهام

يظهر[1] أن شخص المندوب السامى السير برسى لورين قد خاصم الوضوح والجلاء ، وأحكم الصلة بينه وبين الغموض والإبهام . وأبى أو أبت عليه الظروف إلا أن يحاط دائما بطائفة من علامات الاستفهام . أيعود أم لا يعود ؟ أينقل أم يعزل ؟ أيتم نقله أم لا يتم ؟ أيذهب من لندرة إلى أنقرة رأسا أم يعرج فى طريقه على مصر ؟ أيقيم فى مصر فيطيل الإقامة أم يمر بها مرا سريعا ؟ أيعنى بالسياسة المصرية مرة أخرى بعد أن أخفق فى هذه السياسة إخفاقا لم يكتب لأحد من الذين سبقوه أم يصرف عن هذه السياسة صرفا ويكتفى حين يصل إلى مصر بحزم أمتعته وضم جراميزه – كما كان يقول القدماء – ثم الرحيل عن وادى النيل إلى حيث ينهض بأعباء منصبه الجديد ؟

كل هذه أسئلة أحاطت بالسير برسى لورين كما تحيط الهالة بالقمر ، لا نقول منذ أسابيع ، ولا منذ أشهر ، ولا منذ عام ، بل منذ عهد بعيد . ومن قبل ذلك أحاطت بالسير برسى لورين أسئلة أخرى ليست أقل من هذه الأسئلة طرافة وإثارة للعجب والابتسام .

---

(١) ٢١ – ٨ – ١٩٣٣

فلم تكد تقطع المفاوضات بين الوفد المصرى والإنجليز ، ولم يكد يعود السير برسى لورين إلى القاهرة حتى أحاطت به وبسياسته طائفة من الأسئلة لم يستطع هو أن يحلها . وإنما حلها له رئيس الوزراء . أصادق هو فيما كان يظهر من حب للمصريين وعطف على آمالهم وأمانيهم وتأييد للحكم الديمقراطى الصحيح فيهم ؟ أم ماكر هو بالمصريين وأمانيهم وآمالهم ؟ أمخلص هو فيما أعلن بعد ذلك من التزام الحيدة واحترام الاستقلال المصرى ؟ أم لاعب هو بالحيدة والاستقلال ؟ أجاد هو فيما كان يظهر من الحرص على استقرار النظام فى مصر أم هازل هو بمصر وبما كان يريد من استقرار النظام فيها ؟

ومن قبل ذلك أحاطت بالسير برسى لورين أسئلة أخرى حين وصل إلى مصر ليتلقى فيها أزمَّة منصبه الجديد ، فقد كان رأى وزارة الخارجية البريطانية معروفا ، أعلنه وكيلها المستر دالتون حين أكد أن الإنجليز لا يمضون المعاهدة إلا مع وزارة تمثل برلمانا ينتخب انتخابا حرا مباشرا ، ولكن السير برسى لورين أثيرت حول شخصه ورأيه طائفة من الإشاعات والأقوال غريبة ظهرت بعد ذلك أنها لم تكن صحيحة ولا ملائمة للحق ولكنها لم تخلق نفسها ولم تثر من غير مثير ، فكان الناس يتحدثون بأنه كان حريصا على الوزارة القائمة حينئذ ، وكان الناس يتحدثون بأنه كان زاهدا فى تلك الوزارة ، وكان الناس يتحدثون بأنه كان يريد أن يخلص منها فى عنف ، وكانوا يتحدثون بأنه كان يريد أن يخلص منها فى لباقة وظرف يلائمان أدب الرجل النبيل الذى اشتهرت عنه صفات الجنتلمان .

فأنت ترى أن شخص المندوب السامى السابق لا يحب الوضوح ولا الجلاء ، ولا الجو المستقر ، وإنما يحب أن يثور حوله دائما غبار مريب فيه ما يرضى وفيه ما يسخط ، وفيه ما يغرى بالاطمئنان وفيه ما يدعو إلى الحذر .

ولسنا ندرى أيشعر المندوب السامى السابق بهذا كله ويحبه ويتعمده أم هو القضاء المحتوم والقدر المكتوب أبى على السير برسى لورين إلا أن يعيش فى هذا الجو الغريب الذى لم يعش فيه مندوب سام قبله فى مصر .

ولسنا ندرى أكان هذا الجو المريب مقدورا عليه أو مسخرا له فى جميع المناصب السياسية التى تولاها ؟ أم كان مستورا له وراء حجب الغيب حتى إذا مست قدمه أرض مصر انشق الحجاب عن هذا السحاب فأحاط به ولم يفارقه إلى الآن ، ولكن الشىء المحقق الذى لا يقبل شكا ولا جدالا هو أن حجاب الريب هذا لم ينفع السير برسى لورين ولم يعصمه من النقل والإخفاق . فقد كان يظن نفسه ماهرا ماكرا ، وكان يخيل إلى نفسه أنه سيعبث بالمصريين حين يظهر لهم ما أظهر من الصداقة ، فلم يعبث إلا بنفسه ، ولم ينل من المصريين شيئا . وكان يظن أنه سيقهر المصريين ويذلهم ويأخذ منهم بالكره مالم يستطع أن يأخذ منهم بالرضى ، وعلى أن يظهر لهم دائما أنه محايد مخلص فى التزام الحياد . فأغرى المحن والفتن ، وسلط الأحداث والخطوب ، وأشرف من قصر الدوبارة ينظر إلى آثار سياسته الماكرة تعبث بمصر والمصريين فتفسد شئونهم ومرافقهم وتحاول أن تفسد

يقينهم وأن تفل من عزائمهم ، وتصدهم عن حقهم . تأخذ بعضهم باللين والإغراء ، وتأخذ بعضهم الآخر بالعنف والشدة حتى اشتريت الضمائر ، وسفكت الدماء فى غير موضع من أرض مصر

والسير برسى لورين مشرف من قصر الدوبارة ، مُحتم بحياده ، يسمع ويرى ، ويرضى ويقر ، ولكنه بعد عام وعام وعام نظر فإذا ما بذل فى عهده من إغراء ، وما سفك فى عهده من دماء ، وما أنفق من جهد ، وما أضيع من وقت ، وما تكلف هو من حياد ، وما تكلف غيره من جهاد ، كل ذلك لم يصنع شيئا ، ولم يغير من موقف مصر قليلا ولا كثيرا . وإذا دهاء برسى لورين كعجرفة جورج لويد لا يغنى عن الحق شيئا ، ولا يبلغ من المصريين بعض ما يريد الإنجليز أن يبلغوه ، وإذا الوزارة الإنجليزية وعلى رأسها مكدونالد تنقل برسى لورين معترفة بالإخفاق ، مشفقة من آثاره المنكرة . ولابد للوزارة الإنجليزية القائمة ، بعد أن أعلنت اعترافها بإخفاق السير برسى لورين ، واختارت من يخلفه ، من أن تغير السياسة التى سار عليها السير برسى لورين كما فعلت الوزارة الإنجليزية التى اعترفت بإخفاق جورج لويد فعزلته ومحت سياسته محوا .

هذا شيء واضح لا يحتمل شكا ولا جدالا ، ولكن قوما يشكون فيه ويجادلون ، لأن الصحف الإنجليزية فيما يقولون – مجمعة على أن تغيير المندوب السامى لا يستلزم تغيير السياسة الانجليزية . وقد قيل لهؤلاء المجادلين غير مرة إن تغيير السياسة البريطانية فى مصر شيء ، وتغيير سياسة المندوب السامى شيء آخر . فمن المحقق أن الإنجليز لن

يلغوا تصريح ٢٨ فبراير ، ولن يعدلوا عن فكرة المفاوضة التى تنتهى إن تمت إلى معاهدة ، ولن يضموا مصر إلى مستعمرات التاج ، ولن يعلنوا انسحابهم من مصر بغير شرط ولا قيد . لن يفعلوا شيئا من هذا ، لأنهم غيروا مندوبهم السامى ، فهذه سياسة مرسومة محتومة ، لا يستطيع الإنجليز أن يخرجوا منها إلا إذا أرادوا أن يحدثوا فى الحياة الدولية حدثا عظيما . وقد غيروا اللنبى الذى أسس هذه السياسة ولكنهم لم يغيروا سياسته ، وغيروا جورج لويد الذى سلك بهذه السياسة مسلك العنف ولكنهم احتفظوا بهذه السياسة ، ثم هم الآن يغيرون السير برسى لورين الذى سلك بهذه السياسة مسلك الدهاء والمكر ، ولكنهم لا يغيرون هذه السياسة . فالموقف الدولى للإنجليز فى مصر ، لن يغيره نقل مندوب وتعيين مندوب ، وإنما يغيره أحد أمرين : ثورة من المصريين أو من الإنجليز تنقض هذا الموقف نقضا ، أو معاهدة بين المصريين والإنجليز تحقق ما يطمح إليه الفريقان من الاتفاق ، ولكن من وراء هذا الموقف الدولى سياسة أخرى هى سيرة المندوب السامى مع الحكومة المصرية ، والشعب المصرى فى تفصيل الحياة اليومية المصرية ، وفى تفصيل الصلات اليومية بين المصريين والإنجليز . هذه السياسة الخاصة ،هذه السياسة المحلية – إن صح هذا التعبير – لابد من أن تتغير إذا تغير المندوب السامى لأنها رهينة بشيئين كلاهما يستلزم هذا التغيير ، أحدهما هذا الإخفاق المنكر الذى دفع إليه السير برسى لورين دفعا ، والذى لابد من إصلاحه وتداوك آثاره . والآخر مزاج المندوب السامى الذى ينهض بأعباء هذا المنصب فى مصر ، فإن هذه السياسة اليومية مهما تكن متأثرة

بالسياسة العامة ، لا تستطيع أن تبرأ من تأثير المزاج الشخصى للذين يديرونها ويسيطرون عليها فى مصر .

فقل ما شئت فى احتفاظ الإنجليز بسياستهم العامة نحو مصر ، وقل ما شئت فى حرص الإنجليز على ما أعلنوا من حياد ، فهذا كله لن يدل على شيء ، فقد احتفظ الإنجليز بسياستهم العامة ، ولكن سيرة مندوبيهم تغيرت وتغيرت منذ أعلن الاستقلال . وقد أظهر الإنجليز دائما منذ أعلن الاستقلال أنهم على الحياد فيما يمس الشئون المصرية الخاصة . وهل كان تصريح ٢٨ فبراير إلا إعلانا للحياد ؟ وماداموا لم يلغوا هذا التصريح ، فهم لم يلغوا هذا الحياد الذى أعلنوه ، ولكنه حياد يعرفه الناس جميعا ، حياد على الورق ، يقال وينادى به ، ثم لا يمنع من تدخل الإنجليز فى الشئون المصرية كلما احتاجوا إلى هذا التدخل وكلما أرادوه .

ستتغير إذن سياسة المندوب السامى فى مصر من غير شك ، ولكن ما هذه الأنباء التى تلح فى أن السير برسى لورين – رغم نقله وتعيين من يخلفه – سيعود إلى مصر ليتم مدته أو ليتم مهمته على اختلاف الصحف فى ذلك ، إنما هى أنباء تصور حياة السير برسى لورين كما أريد أن تكون فى مصر حياة غموض وإبهام وسؤال واستفهام .

وأكبر الظن أن هذا الغموض سيحيط بشخص السير برسى لورين ، وأن هذه الأسئلة ستلازمه حتى يذهب إلى أنقرة ، ويقدم أوراق اعتماده ، وينهض بأعباء منصبه الجديد ، يومئذ تقطع الأسباب ، لا نقول بين شخصه وبين مصر فقد قطعت هذه الأسباب

بالفعل ، بل نقول بين أوهامه وأوهام أنصاره وبين مصر . فقد يظهر أن هذه الأوهام لا تزال متصلة وستظل متصلة حتى يقطعها ذهاب السير برسى لورين إلى أنقرة أو مجيء السير لمبسون إلى القاهرة .

وهب المندوب السامى عاد إلى القاهرة ، فما عسى أن يفعل فيها ؟ وما عسى أن تكون هذه المهمة التى يريد أو يراد له أن يتمها ؟ وما عسى أن تكون هذه المدة التى يريد أو يراد له أن يختمها ؟ أتراه قد يعود ليهيىء لخليفته جوا صالحا فينقض بيده هذا الفساد المطبق الذى عقده بيده فى هذه الأعوام ؟ أم تراه سيعود ــ ليمضى فيما يقول أنصار الوزارة على استحياء ، وفى همس لا يكاد يسمعه أحد ــ هذه المعاهدة التى كان يحلم هو ويحلم رئيس الوزراء بإمضائها ؟ أم تراه قد يعود لأن مصر مقبلة فى هذه الأيام على أحداث جسام ، فلا بد من أن يكون التمثيل الإنجليزى فيها قويا حتى يأتى المندوب السامى الجديد آخر هذا العام ؟

كل ذلك ممكن أن يكون ، وكل ذلك ممكن ألا يكون . وكل ذلك يدل على شيء واحد ، وهو أن شخص السير برسى لورين لا يستطيع أن يعيش فى مصر أو قريبا من مصر دون أن تحيط به الأسئلة ويكثر حوله الاستفهام .

ومهما يكن من شيء فإن المصريين لن يخفلوا بإقامته بينهم أشهرا ، كما لم يخفلوا بإقامته بينهم أعواما .

كما أن المصريين لن يخدعوا بإقامته بينهم أشهرا ، كما أنهم لم يخدعوا بإقامته بينهم أعواما . عرف المصريون كيف يثبتون لمكره ودهائه ،

وكيف يبسط [illegible] سلط عليهم من المحن والخطوب ، وسيعرف المصريون كيف يثبتون له إن عاد إليهم ، وكيف يدفعون عن حقهم ويذودون عن كرامتهم واستقلالهم وثباتهم على مبادئهم إن كان فى عودته القصيرة شيء قليل أو كثير مما يعرض حقوق المصريين للخطر . فليقم السير برسى لورين فى لندرة ، أو ليذهب إلى أنقرة أو ليأت إلى القاهرة ، فكل ذلك لن يغير من الحقيقة الواقعة شيئا ، وهى أن سياسته قد أخفقت ولا بد للإنجليز من أن يعدلوا عنها إلى سياسة أخرى .